Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

المشروع التنصيري للكردينال لافيجري في الجزائر من خلال كتاب: بول ريمبو، الوجوه البارزة لمئوية احتلال الجزائر 1830-1930" .

The missionary project of Cardinal Lavigerie in Algeria through a book

Paul Rimbault, Alger 1830-1930, les Grandes figures du Centenaire, édit la Rose, Paris 1929

د. بن الشيخ حكيم Dr :Bencheikh Hakim
جامعة الدكتور يحي فارس - المدية
University of Dr Yahia Fares – Médéa Algeria
drbencheikh2016@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2018-09-22 تاريخ القبول : 2018-11-22

ملخص:

من أخطر ما تعرضت له القارة الإفريقية الهجمة التنصيرية التي استهدفت تحويل الشعوب الإفريقية إلى نصارى ، ليس حبا في النصرانية و لكن كرها في الإسلام ، و محاولة للحد من انتشاره ، و لربط هذه الشعوب بمصير الغرب.

اخترت المبشر لافيجري نموذجا لعرض سياسة التنصير التي تبنتها الإدارة الفرنسية في الجزائر ، لأنه حمل على عاتقه مهمة تنصير الجزائريين ، ثم أن دراسة هذه الشخصية من شأنه إعانتنا على فهم طبيعة المرحلة و كذا ردود الفعل الوطنية على مخططات الاستعمار بما فيها مخطط التنصير، والذي يسمونه خطأ التبشير وهو في الحقيقة خدمة الكنيسة لأهداف الإدارة الفرنسية وتمكين الإدماج عن طريق الدين واللغة ونحوهما.

Abstract:

One of the most serious crimes against the African continent was the apostolic attack aimed at turning African peoples into Christians. It is not a love of Christianity but its hatred of Islam, an attempt to limit its spread, and linking these peoples to the fate of the West.

I chose the evangelist Lavigeri as a model to present the policy of Christianization adopted by the French administration in Algeria, because it bore the task of evangelizing the Algerians, and then the study of this character would help us understand the nature of the stage and the national reactions to colonial schemes including the plan of Christianization, Evangelism is in fact the service of the Church for the purposes of French administration and the empowerment of integration through religion, language and so on.

تمهيد:

من أخطر ما تعرضت له القارة الإفريقية الهجمة التنصيرية التي استهدفت تحويل الشعوب الإفريقية إلى نصارى ، ليس حبا في النصرانية و لكن كرها في الإسلام ، و محاولة للحد من انتشاره ، و لربط هذه الشعوب بمصير الغرب ، و إلا كيف نفسر إهمالهم للمسيحية في بلدانهم . حيث تقلص سلطانها في حياتهم وبات الإلحاد مذهبا لعنيا عندهم ، فالتبشير إذن حركة استعمارية ، اتخذت اسم المسيح ستارا لفرض هيمنتها على الآخرين ، كما فعلت الحروب الصليبية من قبل على مدى مائتي عام ، و التي انتهت بالفشل . و تعبر الإرساليات التنصيرية مرادفا للحملات الاستعمارية العسكرية تسبقها حينا و ترافقها حينا و تعقبها حينا آخر ، و هكذا ينفذ المبشرون في كامل القارة الإفريقية مشروعا و مخططا تنصيريا يهدف إلى تحويل شعوبها عن ديانتهم تمهيدا لاستعمارها و استعبادها .

و تبعا لذلك فقد شجعت فرنسا سياسة التنصير خاصة في عهد الحاكم العام شانزي 1874م حيث منحت مبالغ مالية مرتفعة لهذا الغرض ووصلت قرابة 535 ألف فرنك، حيث خصصت وزارة الخارجية الفرنسية مساعدات قدرت ب 60 ألف فرنك، وكان العسكريون الفرنسيون يعتقدون أن لهم رسالة تمدنية وحضارية يقومون بنشرها تحت راية المسيحية، فبعد انتصار الفرنسيين على المقاومة الوطنية اشتدت حركة الإرساليات التبشيرية التي وجدت الباب مفتوحا على مصراعيه بعد التشجيع الكامل من العسكريين الفرنسيين ، فكان منهم إرساليات منظمة كالإخوان و الأخوات البيض الذين لم يكن لهم من البياض إلا الملابس كما قال الدكتور حسن رايس (1) وإخوان المذهب الكاثوليكي و غيرهم ، و من الجنرالات الذين وقفوا إلى جانب هؤلاء منافحين و مدافعين الجنرال بيجو الذي اشتهر بسياسة الأرض المحروقة و التدمير الثقافي و الحضاري للشعب الجزائري ، فكان يرعى و يدعم و يقدم لهم كل المساعدات الضرورية حتى ازدادوا عددا و ازداد نفوذهم في هذه الفترة ، وهدفه الأساسي من وراء ذلك هو محاربة القرآن الكريم باعتباره الجدار الذي منعهم من اختراق المجتمع العربي الإسلامي (2)، لاعتقادهم « أن المسلمين إذا اعتنقوا الدين المسيحي فإنهم سيظهرون لنا الطاعة ويصبحون إخوانا لنا ... ألا تتطلب سعادة هؤلاء الأشقياء أن نقوم بهذه المحاولة؟ إننا عندما نقدم لهم العقيدة الجديدة سنضع حدا لها أي الفيض الشنيع لطبائعهم وأخلاقهم والذي يمتاز به هؤلاء الذين يسيرهم القرآن».

أما الجنرال لامورسير فقد قال في اعتزاز بعد أن نجح في إخماد بعض الثورات الشعبية الجزائرية :<< لقد رأيت الآباء يعملون، لقد أحببتهم فقد علموني أنه يوجد انتصار أخر فوق كل انتصار هو ذلك الذي ننتصر فيه أكثر من أي انتصار لقهر العالم. » (3).

ولا شك أن هذه الإجراءات التعسفية التي ارتبطت بالحاكم العام دو قيدون تفسر بوضوح طبيعة السياسة التبشيرية التي تبناها وأعلنها الكردينال لافيجري لقوله: « لقد قضيت حياتي وأنا أحمي البعثات التبشيرية الكاثوليكية في كل بحار الأرض ولا يمكن أن أقبل اليوم أن تضطهد على أرض فرنسية..»(4).

و إن اخترت المبشر شارل لافيجري نموذجا لعرض سياسة التنصير التي تبنتها الإدارة الفرنسية في الجزائر فلأنه حمل على عاتقه مهمة تنصير الجزائريين ، ثم أن دراسة هذه الشخصية من شأنها إعانتنا على فهم طبيعة المرحلة و كذا ردود الفعل الوطنية على مخططات الاستعمار بما فيها مخطط التنصير، والذي يسمونه خطأ التبشير وهو في الحقيقة خدمة الكنيسة لأهداف الإدارة الفرنسية وتمكين الإدماج عن طريق الدين واللغة ونحوهما(5) ، و لا يعني ذلك بأي حال من الأحوال أن الباقين من المنصرين الذين كانوا ينشطون في الجزائر أمثال : دوفوكو، رامون لول، و الأسقف بافي و غيرهم أنهم كانوا متسامحين مع الثقافة العربية الإسلامية ، بل لقد سار كلهم على نفس المنهج القيدوني لمحاربة الإسلام والقضاء عليه، لأن أغلبهم كان يعتقد ويؤمن إيمانا راسخا بإمكانية تحويل الجزائريين عن دينهم ومعتقدهم إلى الدين المسيحي الجديد (6).

و إذا كانت الجهود الأولى للمبشرين قد تركزت في منطقة القبائل (7) و والتي بدأت في شكل هجمات عسكرية شنتها فرنسا تزامنا مع ظروف الاحتلال، والمعروف تاريخيا أن هذه المنطقة خلال السنوا ت الممتدة من 1838 إلى 1864 قد عرفت خمسة عشرة حملة عسكرية كان أخرها حملة ايشريضن صيف 1857 بقيادة الجنرال روندون الذي اصطحب معه الأسقف بافي والأب سوشي للتبرك بهما (8) ، و للإشارة فإن المحاولات التبشيرية و التنصيرية التي تلتها بدأت في التوسع لتشمل مناطق أخرى كمنطقة الأوراس ما بين 1893-1900م ، ووصلت حركة التنصير أواخر القرن 19م إلى مناطق الصحراء مثل مدينة ورقلة والأغواط ، إلا أن مجهوداتهم باءت بالفشل الذريع لاسيما في غرداية و في الجنوب الغربي بمحاذاة منطقة أولاد سيدي الشيخ ، نظرا لتمسك السكان بدينهم الإسلامي حيث لم ينظم إلى المدارس المسيحية إلا أطفال اليهود الذين كانوا يلقنون بعض مبادئ التعليم التربوي والمهني(9).

هذا و يمثل هذا العمل عرضا لوجهة نظر الدراسات الإستعمارية الفرنسية التي كان هدفها تزيف الحقائق لاسيما إذا تعلق الأمر بالمسلمين الجزائريين و إظهار الوجه المشرف لشخصياتها و قادتها ، و إذمار الجانب القبيح لسياساتهم و أفكارهم و مبادئهم، و الحال كذلك من خلال هذا الكتاب الذي حاول صاحبه أن يبرز شخصية الكاردينال لافيجري على أنه شخصية ملائكية و إليه يعود الفضل في بناء أسس المسيحية في إفريقيا و في شمالها على وجه الخصوص، فهو الأب المتسامح و البسيط .

ويظهر مؤلف هذا الكتاب الكاردينال شارل لافيجري على أنه مخلص المسلمين الجزائريين من مشاكلهم ومعينهم على تحمل مشاق وصعاب الحياة ، لأنه كان يدعو إلى إقامة المدارس و المستشفيات و الصيدليات غير أنه ركز على الجانب الديني ، لأنه رأى فيه عاملا مهما و شعورا بإمكانه أن يشد المسلمين الجزائريين إليه والواقع أن هذه السياسة لم يكن هدفها خدمة المسلمين و لكنها كانت أسلوبا من أساليب الاستعمار و آلية من آليات التبشير و السيطرة ، لأن الكاردينال كان يعتقد بأنه إذا جرّد الجزائريين من إسلامهم و هويتهم ولغتهم يمكن استعمارهم و تسخيرهم لخدمة السيد الأوروبي ، و بالتالي يكون التبشير الديني وسيلة وليست غاية في ذاتها لأن الهدف في أخر المطاف استعباد الجزائريين و طمس معالم شخصيتهم .

و لا جرم أن المتتبع للمراحل التي ميزت تاريخ الكاردينال من خلال المصادر الفرنسية تبدو خطوات مشرفة حاول من خلالها تكريس مبادىء المسيحية السمّحة و نشر رسالة المدنية و الحضارة إلى هذه الديار التي رأى فيها الجمود و التقوقع على الذات (10)، و كذلك هي تصوره بصاحب القلب الرءوف الذي لم يكن بالفيلسوف الموقع ولا بصاحب الأحلام التواقة ، و لكنه المسيحي المؤمن الذي تمكن دون سابقيه من ترسيخ المشروع التبشيري الملائكي في الجزائر، و السؤال الذي يطرح نفسه هو هل طلب أهالي الجزائر من الكاردينال لا فيجري أن ينجدهم من جهلهم مثلما استنجدوا بالأخوين بربروس الذين خلصوهم من براثن الغزو الإسباني و البرتغالي في القرن 16م .و هل اشتكى المسلمون الجزائريون لأحد من ظلم الحاكم أو إدارة كانوا لا يرغبون العيش تحت ظلها ، و هل كان الكاردينال لافيجري رحيما إلى هذه الدرجة ؟ و ما مدى مصداقية الدراسات و الأبحاث الغربية ؟.

مثلما يظهر من خلال هذا المصدر الذي بين يدينا و الموسوم ب" **شخصيات مهمة في القرن الأول من احتلال الجزائر(1830-1930)** "(11)، و هو محور هذه الدراسة التي تتناول شخصيات فرنسية كثيرة منها شخصية الكاردينال لافيجري الذي تقول عنه أنه شخصية قوية ومؤثرة تكاد تقّترب من الكمال، فهو مثل العقد النفيس الذي لا يمكن أن نحصي حباته دفعة واحدة إذ لا بدّ من دراسة حياته خطوة خطوة.

وبمعرفة تفاصيل هذه الشخصية علينا أن نطرح تساؤلين مهمين هما:

- من يكون الكاردينال لافيجري؟ و من أين جاء ؟ .

- ***<u>الكاردينال لافيجري (شخصيته و سياسته):</u>***

القديس (le cardinal Charles Lavigerie) شارل مارسيال ألمان لافيجري من مواليد (<u>31 أكتوبر 1825</u> - <u>18 نوفمبر 1892</u>) <u>كاردينال فرنسي</u> نشأ في <u>بيايون</u>(Bayonne) بالبيرني.

شخصية جمعت ثلاث عناصر جنسية هي (الباسك _ Basque ، البيارني _ Bearnais ، والغاسكون _ Gascon) و التقت في شخصه كل العناصر (الحب، القوة، العنف، رقّة القلب والطيبة ..) ، فقد وصف مرة نفسه فقال : « أنا باسكي ولي مزاج متصلب عندما تقتضي الظروف ، وأنا طفل من البيرني لا تخيفه الجبال و باستطاعتي تعديها بسهولة وبكل الطرق المتاحة لدي ..» (12)، قدم إلى إفريقيا سنة 1867م، و آمن بعدة أفكار قبل مجيئه إلى الجزائر وهي:

-1- لابد من تنصير العرب بالقوة .

-2- استئصال الإسلام من قلوب المسلمين الجزائريين وهي السياسة التي انتهجتها الإدارة الفرنسية منذ 1830. (13)

- 3- العمل على استدراج المسلمين الجزائريين شيئا فشيئا نحو النصرانية ، وتمثل سياسة لافيجري استمرارية للوجود الروماني وقبلهم الوندالي في الجزائر، وأن الفرنسيين وغيرهم ممن تشدهم الحضارة المسيحية لم ينسوا يوما بأن هذه الأرض قد درج عليها أجدادهم من قبل وأنهم جاؤوا لاستعادة مملكاتهم المغتصبة .

وهو الابن الأكبر في عائلته المتكونة من أخ وأختين، شغل أبوه ليون لافيجري منصب مفتش لدى مصلحة الجمارك بالمدينة أما عن أمه فهي لورا لاتريل وهما من عائلة بورجوازية ، هذا و يمثل القديس لافيجري المرحلة الثالثة الأهم و الأخطر في تاريخ التنصير في الجزائر ، لان التنصير في عهده بلغ ذروته حتى لقب بأبو التنصير في الجزائر وإفريقيا و صنفته أهم الدراسات التاريخية و الدينية و حتى الكتابات التاريخية بالشخصية بالأبرز طيلة القرن التاسع عشر.

ترى هذه الدراسة أن فترة لافيجري وسياسته وأفكاره جاءت ضد المتعصبين من المسلمين الجزائريين الذين رفضوا الأوروبيين على أراضيهم مع أن هؤلاء جاءوا ليحببوا فكرة إفريقيا اللاتينية التي كانت بالأمس مركز إشعاع وتنوير (14) ، و من ذلك يكون لافيجري قد سعى إلى خلق أمة موحدة تجمع بين المسلمين والأوروبيين والسود على أرض الجزائر، وكان هدفه هو جعل الجزائريين بمثابة أبنائه رغم أنهم لم يعترفوا له بأبوته (15).كما أنه لم يكن يفكر أصلا في فرض النصرانية على الأفارقة وإنما أراد أن يقربها لهم عن طريق التسامح والمعاملة الحسنة، وإن تحقيق ذلك أفضل انتصار على الإسلام.

كانت الحضارة تعني للكاردينال لافيجري الاعتقاد و الظن في الذات أولا ثم أن تعيش لهدف نبيل بعد ذلك وهو سلخ الشعب الجزائري من دينه في غمرة تفاعله بالقرآن ، كما يرى لافيجري أنه من الخطأ إبعاد هذا الشعب إلى الصحراء بعيدا عن مصادر الحضارة (أو العالم المتقدم) لذلك فهو يفضل الأساليب الحرة والاحتكام إلى العقل الحذر بفرض سياسة التنصير في الجزائر بدل وسائل العنف والقوة .

ويردف المؤلف قائلا : « ألم يكن الكاردينال لافيجري بالأمس هو الذي بسط يده للأمير عبد القادر ، وقال له أن ربنا واحد ، وأن الرجال الأحرار والعادلين هم أبناء الله ، وهو كذلك الذي دعى رجال الدين أن يبقوا أبواب منازلهم مفتوحة لاستقبال الجزائريين وأمرهم ألا يضعوا أسوارا تحول بينهم وبين الأهالي المسلمين ، وهو الذي حذر أتباعه ألا يلحقوا ضررا بالنساء ، وأن يتكفلوا بعلاجهم (16).

فقد كان لافيجري في أعماقه يمثل شخصا ليبراليا و رجل الدولة له نظرته الثاقبة في التعامل مع الأحداث السياسية التي أحاطت به ، ولم يكن من الذين انساقوا نحو تحقيق طموحاتهم بمعزل عن الوسائل الديموقراطية فهو قد أخذ بهما مجتمعين ، فكان له حينئذ أن يجمع بين عاملين مهمين هما : الصحافة والمال ، فاستعان بالأولى ليظهر للحكومة الفرنسية على أنه ليس وحده في المعترك السياسي ، ولكن كان إلى جانبه جمهوره ومؤيدوه (17)، واستخدم المال ثانيا لأنه الطريقة المثلى في طرق جميع الأبواب الموصدة ، فقد كانت تأتيه أموال طائلة من كل أنحاء العالم ولم تكن تكفي لتغطيه حاجيات البعثات الدينية وإقامة الكنائس وإطعام اليتامى ، وفي بناء المتاحف ، وأخيرا في إقناع العرب بعظمة المسيحية حتى يسهل اعتناقها .

لم تكن مهمة الكاردينال لافيجري سهلة فقد كان عليه أن ينشر رسالة الحضارة الفرنسية في كل ربوع إفريقيا ، ولتحقيق ذلك كان عليه أن يجند جيشا من الرهبان يرتدون نفس لباس الأهالي ويحبون نفس حياتهم ويعانون نفس معاناتهم ، ولأجل ذلك فقد أنشأ سنة 1868 أمرية الرجال البيض و الأخوات البيض وكان على هؤلاء أن يتصرفوا بحزم وبقوة وبحذر شديد مع الجزائريين .

فقد أنشأ في كل حي مركز به صيدلية ومدرسة وكنيسة وأوكل للأخوات البيض أن يعشن حياة بسيطة عمادها خدمة الأرض وتربية الحيوانات مثلما كان يحي المسيح نفسه . و في سنة 1873 كاد الكاردينال لافيجري أن يترك هذه المهمة لكنه عاد من جديد بعدما ازداد قناعة من ذي قبل على نجاح مهمته ، واختار منطقة القبائل حتى تكون مركزا للآباء البيض لأن القبائل كانوا مسيحيين حتى القرن 07 م (18).

ولقد أنشأ الكاردينال مدينتين غرب مدينة الجزائر وبالضبط في ناحية مدينة الشلف وسميتا (الأولى سان سبريان ، والثانية سانت مونيك) خصصت هذه المدن لاستقبال الأيتام ، و في إنقاذ الكثير من المسلمين من الجوع الذي ضرب الجزائر سنة 1868. و لعل هذه الخدمات الاجتماعية والخيرية هي الطعم الذي اصطاد به الاستعمار بعض ضعفاء النفوس من المسلمين ليحولهم إلى آلات صماء في يده ، يسخرها حسب أهوائه خدمة أطماعه و مأربه ، وكذلك استطاع المستعمر ورجال الدين أن يكونوا جيشا من المرتزقة يعمل على توهين عرى الإسلام . لقول الكاردينال لافيجري : « علينا أن نجعل من الأرض الجزائرية مهدا لدولة مسيحية تضيء أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل .. وتلك هي رسالتنا .» (19).

وبهذا الأسلوب التضليلي يمارس رجال الدين دورهم لتبرير أفعال الحكام واصطناع الوسائل التخديرية لترويج الفهم الخاطئ للإسلام (20) ، ولأنه والمسيحية المادية في صراع دائم مع أصحاب هذه الأرض حيث صادرت فرنسا أملاكهم الوقفية ، كما هدمت مساجدهم وحولتها إلى كنائس ، وكل ذلك ليس من أجل المسيحية بل بقناع مسيحي و بمفاهيم رومانية لاتينية هدفها احتلال ما تجاوزه الزمن كان العرب قد تحرروا منه بفضل الإسلام (21) .

وأغلب المصادر الفرنسية نظرت إلى الكاردينال لافيجري على أنه مثل القديس أوغسطين الذي استطاع أن يؤسس لمدرسة مسيحية في شمال إفريقيا (22) فقد كانت الجزائر هي البوابة الكبيرة التي يمكن الولوج من خلالها، لذلك كان يرسل الآباء البيض إلى حدود الجزائر الجنوبية وإلى حواف مدينتي غرداية و ورقلة لخلق اتصال مع الشعوب الإفريقية الأخرى ، لأنها مؤهلة أكثر من العرب لاحتواء فكرة النصرانية ، ثم لقطع الطريق أمام انتشار الرسالة المحمدية التي أصبحت غير بعيدة عن هذه الشعوب ، حيث وإلى تمكن لافيجري سنة 1892 من الوصول إلى حدود دكار وزنجبار والكونغو والسودان (23).

لم يكن الكاردينال رجل دين فقط ولكن اهتماماته تجاوزت حدود الكنيسة إلى السياسة ، كان ذلك حينما ترشح لعضوية البرلمان الفرنسي سنة 1871، وكان من الذين وقفوا أمام الأطماع البريطانية في تونس وأمام التدخل الإيطالي في ليبيا ، فسخر نفسه بتولي رئاسة المدرسة الشرقية حينما اشتد صراع فرنسا مع روسيا وإنجلترا ، وأصبح وضعها يثير القلق .

كما أسس سنة 1878 بالقدس مدرسة القديسة "آن" (Sainte Anne) لتعليم المسلمين اللغة الفرنسية.

وتذكر المصادر الفرنسية أن الكاردينال وجد نفسه مرتاحا كثيرا حينما كان ينتقل بين بيته ببسكرة وكاتدرائيته بمدينة الجزائر و كذا إقامته في تونس ، فكان يشعر أنه في وطنه وبين قومه ودليل ذلك أنه كان يسخر جلّ إمكانياته وطاقاته كلما حل الجوع أو ضرب المرض المسلمين في الجزائر و تونس.

وقد أولى المسؤولون الفرنسيون أهمية خاصة للنساء المبشيرات حيث أتيحت لهن وحدهن إمكانية الدخول إلى حرمة المنازل. و الإطلاع على أسرار المسلمين الجزائريين.

الظروف العامة التي جاء فيها الكاردينال لافيجري :

تمتاز السنوات الممتدة من 1866-1868 بنكبات طبيعية كانت أقسى ما يكون على السكان الجزائريين وخاصة الفلاحين منهم ، وتتمثل هذه النكبات في الزلزال الذي ضرب مدينة البليدة وضواحيها ، والذي تسبب في ضحايا كثيرين وفي هجوم الجراد والجفاف ووباء الكوليرا والتيفوس ، وقد تظافرت هذه النكبات كلها فأدت إلى ظهور أزمة اقتصادية ، وأتخذت صورة مجاعة عامة بالجزائر سنة 1867 واستمرت إلى أواخر 1868 . (24)

وقد كان أول اتصال للكاردينال بالعالم الإسلامي و بنصارى الشرق سنة 1860 حين زار بلاد الشام وحمل للمسيحيين هناك إعانة جمعت في أوروبا لمساعدة المسيحيين في الحرب الطائفية التي اندلعت بين الدروز والموازنة (25) ، حيث كتب حينها إلى وزير الشؤون الدينية بعد قرار التعيين يقول له : « .. **إني الوحيد الذي أبديت اهتماما بنشر المسيحية وسط العرب، وقد كانت ولازالت لي علاقة طيبة مع مسيحي المشرق العربي، وهؤلاء يجب استدعاؤهم إلى الجزائر**» (26).

و بذلك يعتبر لافيجري أحد الوجوه التاريخية المسيحية التي أثرت بعمق على فلسفة التبشير وطبيعتها بتفكيره وسلوكه وجرأته في شتى الميادين (27). وعلينا كباحثين ألا نغفل دور الحركات التبشيرية في الجزائر التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بالنشاط الصحي على عهد الاحتلال الذي كان الهدف منه ليس الدفع بعملية الاستطباب وتحسين الظروف الصحية للفرد الجزائري ولكن مراده كان القضاء على الإسلام واستئصاله من قلوب الجزائريين ، لقول الكردينال في رسالة بعث بها إلى الأسقف غوالي رئيس مكتب الفاتيكان بالجزائر سنة 1835 « أظن أنني مقصر في واجبي إن أنا لم أطلعكم على التأثير الرائع الذي يمارسه وجود أخوات القديس يوسف لصالح الدين الكاثوليكي على المسلمين واليهود » (28)، إذن فحركة التبشير في الجزائر ولاسيما في عاصمتها قد عرف نشاطا كبيرا على عهد مبشرين كثر وبخاصة على عهده و في ذلك يمكن الجزم بان سياسة الكاردينال لافيجري في الجزائر أقل ما يقال عنها أنها كانت همجية وغاشمة و لا تمت بصلة إلى تعاليم الكتب السماوية (29).

- **ردود الفعل الوطنية اتجاه المشروع التنصيري للجزائر**:

يقول الشيخ الإبراهيمي في الاستعمار مايلي : « ما يلفت النظر هو أن الاستعمار جاء إلى هذا الوطن بثلاثة أشياء ليمحو بها ثلاثة أشياء ، جاء باللاتينية ليغمر بها العروبة ، وجاء بالفرنسية ليقضي بها على اللغة العربية ، وجاء بالمسيحية لينسخ بها الإسلام .» (30) وقد يقول قائل أن الأوروبيين بحملاتهم التبشيرية والعسكرية أرادوا مساعدة الشعوب المتخلفة ففتحوا لها المدارس وكل أماكن العمل الاجتماعي ، واهتموا بتجميع تراثها وخاصة العربي والإسلامي ومثل هؤلاء لا يفقهون معنى الاستعمار الذي قاد أكبر حرب صليبية ضد الإسلام والمسلمين لازالت قائمة إلى اليوم ، ولأن من أهداف الاستعمار في التعليم كان الهدف خلق موظفين تابعين ، وفي الثقافة استهدف الاستعمار خلق جيل من المؤمنين بالفكر الغربي ، وفي مجال الصحافة كان الهدف مسايرة الاستعمار والدفاع عنه وفي التاريخ حاول الاستعمار التشكيك في البطولات العربية الإسلامية وتصوير الأمة بصورة مهلهلة مفككة ، وفي اللغة العربية كان الهدف القضاء عليها وتغليب اللهجات الإقليمية والحروف واللغات اللاتينية وغيرها ..» (31)

و قد أستغل التنصير لدوافع سياسية و اقتصادية و في الحركة الاستعمارية ، فعملت البعثات التبشيرية على فتح المدارس و الأديرة و على نشر اللغات الأوروبية و الديانة المسيحية و على نشر الأفكار المسمومة الغربية تمهيدا للاحتلال العسكري وما صاحبه من استغلال اقتصادي للخيرات و الثروات، وهذا ما حدث في الصين و كندا و أوغندا وبعض أجزاء إفريقيا (32).

تمكن المسلمون الجزائريون بمختلف الأساليب والوسائل المتاحة لديهم أن يواجهوا و كذلك أن يعطلوا آلة التنصير و الإدماج التي جاءت على مقدساته و هويته ، بالعمل بجدّ على فضّح سياساتهم حينا و بالذود عن دينهم و معتقدهم حينا آخر ، بترسيخه في قلوبهم و بالتمكين للغة العربية بتعليمها و الحديث بها ثم تفعيل دور المؤسسات الدينية كالزوايا و المساجد و الكتاتيب و الأوقاف و كلها وسائل تحّدي و مواجهة لسلطات الاحتلال.

فالزاويا و المساجد و الكتاتيب التي حضت حضارة هذه المنطقة و صانتها من كل أنواع التدمير فالزاوية فتحت أبوابها لطلاب العلم و المساجد كانت حافظة للعبادات ، أما الكتاتيب فقد حافظت على

تعليم و تحفيظ القرآن الكريم كما ساهمت بشكل كبير في الحفاظ على خصوصيات المجتمع الجزائري من الثقافة الإسلامية إلى اللغة العربية، كأسلوب ووسيلة لمواجهة سياسة التنصير و الفرنسة وحماية الشخصية الجزائرية و تكثف نشاطها خلال القرنين19م و 20م

و كذلك كان للمساجد الدور الريادي في الحفاظ قد على هوية و قيم الأمة الجزائرية، وبذلك استطاعت أن تتمسك بدينها و لغتها و أن تقف كحاجز منيع في وجه الجهود الاستعمارية الرامية إلى تدميرها.

كما كانت المقاومات الشعبية أفضل أسلوب للرد على هذا الفكر الدخيل على الأمة الإسلامية الجزائرية، وكانت الطرق الصوفية المتواجدة في الجزائر هي التي تقود هاته المقاومات وتعطيها الصبغة الدينية، فأكثر الثورات التي قادها زعماء المقاومة في القرن التاسع عشر كانت الممول الرئيس لها هم مريدو الطرق الصوفية.و كان أهمها في ذلك الوقت ولها نشاط في المقاومة الشعبية باسم الدين ورد عدوان الحركة التنصيرية هي الطريقة الرحمانية والطريقة القادرية والهبرية وغيرها كثير.

ناهيك عن دور رجالات الأحزاب السياسية و بخاصة منهم جمعية العلماء و كذا تياري المساواة والاستقلال الذين فضحوا عنجهية الاستعمار بطرقه ووسائله و في أشكاله و مناهجه.

خاتمة:

مهما يكن من أمر فإننا نقف على عمق السياسة التبشيرية و على طبيعة التحالف الإستراتيجي المتين وعلى عمق التعاون الوثيق الذي جمع بين السلطة الاستعمارية الفرنسية بالكنيسة بنيّة تنصير الشعوب وبخاصة الواقعة جنوبها و إعادتها إلى ديانتها البربرية القديمة أي دين أجدادها الرومان و حكم بيزنطة .

مما سيعطي لفرنسا مكانتها المتميزة التي كانت تحلم بها و تسعى إليها دائما بين منافسيها كانجلترا يعطيها دون شك إشعاعا يمكنها من نشر عاداتها و لغتها و رايتها و أسلحتها و عبقريتها كما وضحه جول فيري في بيانه لشروط عظمة فرنسا . و قد باشرت فرنسا في إفريقيا في شمالها و جنوبها دور الحارس الأول للمسيحية في الخارج ، رغم طابعها اللائيكي في الداخل. لقول أحد رجالاتها : اللائيكية صالحة لفرنسا و ليست بضاعة للتصدير.

هذا و قد اعتمد المنصّرون في تبرير رسالتهم هذه على مقولات و أفعال عنصرية مشكوك في نزاهتها و كانوا أداة لرجال الحكم و السياسة الذين اعتبروا الجزائريين و الفارقة عامة أدنى منزلة من الرجل الأبيض الغربي ، و أنه اعتبارا لما يدّعون أنها معطيات علميّة كونه أي رجل الجنوب مجرم بالطبع،هذام بالغريزة ليس له تفكير منطقي و هو ميال إلى سفك الدماء ، و هي في الواقع تراهات سخيفة غير جادة تفتقر إلى الموضوعية هدفها الإدعاء أن سكان المغرب العربي متخلفون و أنهم في حاجة ماسة إلى الفرنسيين ليأخذوا بأيديهم و يسيروهم و بتراهاتهم هذه يدعم هؤلاء و من والاهم حتى من العلماء و الأطباء التسلط الاستعماري ، بل و يفسحون له المجال ليبتزوا به ثروات الأمم و الشعوب و هم بذلك ينشطون أعوانا للحكم لا يعملون بصفتهم رجال علم أو دين .

- كان عمل الاحتلال الفرنسي ضرب تلاحم المجتمع الجزائري وتفكيك عناصره و هي مهمة محورية لتسهل السيطرة على الأرض والإنسان، وتجريده من عنصري المناعة فيه (اللغة والدين) ممّا لم يكتمه قادة الاحتلال وضباطه من قواد الجيوش الغازية، منذ الساعات الأولى في شهر (جويلية 1830م) تاريخ انتهاء الحكم العثماني في (الجزائر)، وإعلان الاحتلال الفرنسي.

لقد أحدث المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر جروحًا عميقة في بناء المجتمع الجزائري، حيث عملت فرنسا على إيقاف النمو الحضاري والمجتمعي للجزائر مائة واثنتين وثلاثين سنة، وحاولت طمس هوية الجزائريين الوطنية، وتصفية الأسس المادية والمعنوية التي يقوم عليها هذا المجتمع، بضرب وحدته الأسرية، وإتباع سياسة تبشيرية تهدف إلى القضاء على دينه ومعتقده الإسلامي، وإحياء كنيسة إفريقيا الرومانية التي أخذت بمقولة **"إن العرب لا يطيعون فرنسا إلا إذا أصبحوا فرنسيين، ولن يصبحوا فرنسيين إلا إذا أصبحوا مسيحيين"**.

هوامش البحث:

1-حسين رايس، بعض جذور الإشكالية الثقافية حاليا في المغرب العربي ، مجلة شؤون عربية عدد: 30 ، ص 31.

2- نفسه، ص 45.

3- **نفسه، ص 31،32،33.**

4-عبد الجليل التيميمي ، التفكير الديني والتبشيري ،المجلة المغربية التاريخية العدد:01، تونس، 1974، ص 22، 23.

5-شارل روبير أجرون ، الجزائريون المسلمون و فرنسا 1871-1919 ، ج 01، دار الرائد للكتاب، الجزائر ، سنة 2007، ص 303.

6-عبد القادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية ,ط1 ، دار الأمة الجزائر سنة 1999، ص70- 71.

7- علي بطاش، لمحة تاريخية عن منطقة القبائل(حياة الشيخ الحداد وثورة 1871م) ، ط2، دار الأمل للطباعة والنشر تيزي وزو ، الجزائر، 2007م ، ص 51. و حول التنصير و الأحوال الشخصية في بلاد القبائل أنظر كذلك:

- Chenafi Faouzia, état civil et analyse démographie – Historique en Algérie, Historique et diagnostic et évaluation, revue des sciences sociales et humaines, université d'Oran.

أما عن السياسيين الذين كتبوا ونادوا بتنصير القبائل الدكتور واريني الذي نشر عدة مقالات في جريدة الرأي الوطني تناول في إحداها دراسة عن هذه المنطقة ومما جاء فيها هو أن البربر أكثر عدد من العرب، وقد شك في إسلامهم حينما قال ..." وربما هما مسلمون ولكنهم يحملون وشاما على شكل صليب فوق الجبهة وعلى الوجهتين ...وبربر جرجرة يبدون استعدادا للرجوع إلى المسيحية ، أنظر: خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر (1830– 1871) ، مطبعة دحلب ، الجزائر ، 1992، ص 138.

8- Oaugas , la Kabylie et le peuple kabyle. Paris ،1877 .p89

9- أبو القاسم سعد الله الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1900م)، ط1،ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان 1992، ص404،403.

10- و الواقع أن الدراسات الغربية و في كثير منها رأت بأن شعوب المنطقة قد تقوقعت حول نفسها و انزوت حتى أضحت ترفض كل حضارة أو تطور ، و حول هذه القضية أنظر: بن الشيخ حكيم، الدولة و المجتمع في المغرب الأوسط (الجزائر) من خلال نظرتي المؤرخين " قوتي " و" شارل أندري جوليان "، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية و الإجتماعية ، العدد : 04، جامعة الجبلالي اليابس ، سيدي بلعباس، سنة 2012.

– **و لمزيد من الإطلاع حول نظرة المصادر الفرنسية لشخصية لافيجري أنظر:**

– Claude. Renault (François) : Le cardinal Lavigerie, 1825-1892. L'Église, l'Afrique et la France. In: Revue française, d'histoire d'outre-mer, tome 80, n°299, 2e trimestre 1993. pp 353-354 .

10- المرجع الذي بين أيدينا لصاحبه :

Paul Rimbault , Alger 1830-1930, PROVENCE, CAOM, AIX EN 1929. les Grandes figures du Centenaire , édit la Rose , Paris

يقع كتاب **بول ريمبو، الوجوه البارزة لمئوية احتلال الجزائر 1830-1930"** في حوالي 400 صفحة و هو من الكتب النادرة ، عثرت عليه في مكتبة الأرشيف الفرنسي بمدينة أكس بينما كنت في رحلة بحث عن مصادر التاريخ الجزائري لإعداد أطروحة الدكتوراه سنتي 2007 و 2008، يحوي كثير من الشخصيات الفرنسية التي صنعت مجد فرنسا طيلة قرن من الزمن يأتي في مقدمتها الجنرال دي بورمون و الجنرال لامورسيار و الجنرال بيجو غيرهم .

12Ibid ,pp. 156,163.

13. Ibid - Jean-Claude Ceillier, Anthologie de voir aussi ; textes, Vol 01 (1857-1874), Rome 2016, p05.

14- Baurnard (M) . Le cardinal Lavigerie ، Librairie Paussielgue , paris ، 1898 .p 6,7.

15- Ibid, P168.

16- و الواقع أن منطقة القبائل كانت حتى القرن 07 م غير مسلمة كما لم تكن كذلك مسيحية بل كانت بربرية لهم معتقدهم و نظرتهم للحياة و القدر.

17- CAOM ,AIX ENPROVENCE , Paul Rimbault, op cit, p 170 .

18- Ibid, p 171,172.

19- فرحات عباس، ليل الإستعمار ،حرب الجزائر و ثورتها ، ج 01، ، ترجمة : أبو بكر رحال ، مطبعة الفضالية ، الجزائر ، 1984، ص 91.

20- أسعد السحمراني ، الاستبداد والاستعمار وطرق مواجهتها عند الكواكبي والإبراهيمي ، دار النفائس ، بيروت ، 1984 ، ص 60 .

21- نفسه ، ص 108.

22- CAOM ,AIX ENPROVENCE , Jean Mélia , Les Multiples Visages de l'Algérie , p 05 .

23- CAOM ,AIX ENPROVENCE ,Paul Rimbault, op cit, pp 177,179.

24- Ibid, pp 170,180.

25- خديجة بقطاش، مرجع سابق ، ص 105.

26- نفسه، ص 110.

27- عبد الجليل التميمي ، دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس 1830-1881 ، المجلة التاريخية المغربية ، جانفي 1975 ، ص 14 .

28- XAVIER DEMANCLOS, Lavigerie et le saint siège, Paris, 1965, P 325.

29- خديجة بقطاش ، مرجع سابق ، ص47.

30 - عدي الهواري ، الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، سياسة التفكيك الاقتصادي و الاجتماعي (1830- 1960) ، ترجمة: جوزيف عبد الله ، دار الحداثة ، بيروت 1983، ص 08.

31- الإبراهيمي، محمد البشير، من آثار محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1971، ص 165.

32- الجندي ، أنور ، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ، الدار القومية ، القاهرة ، سنة 1965 ، ص 129 .

33- يحي بوعزيز ، الاستعمار الأوروبي الحديث في افريقيا و آسيا و جزر المحيطات ، د.م.ج ، الجزائر ، ص 17 .

الملاحق:

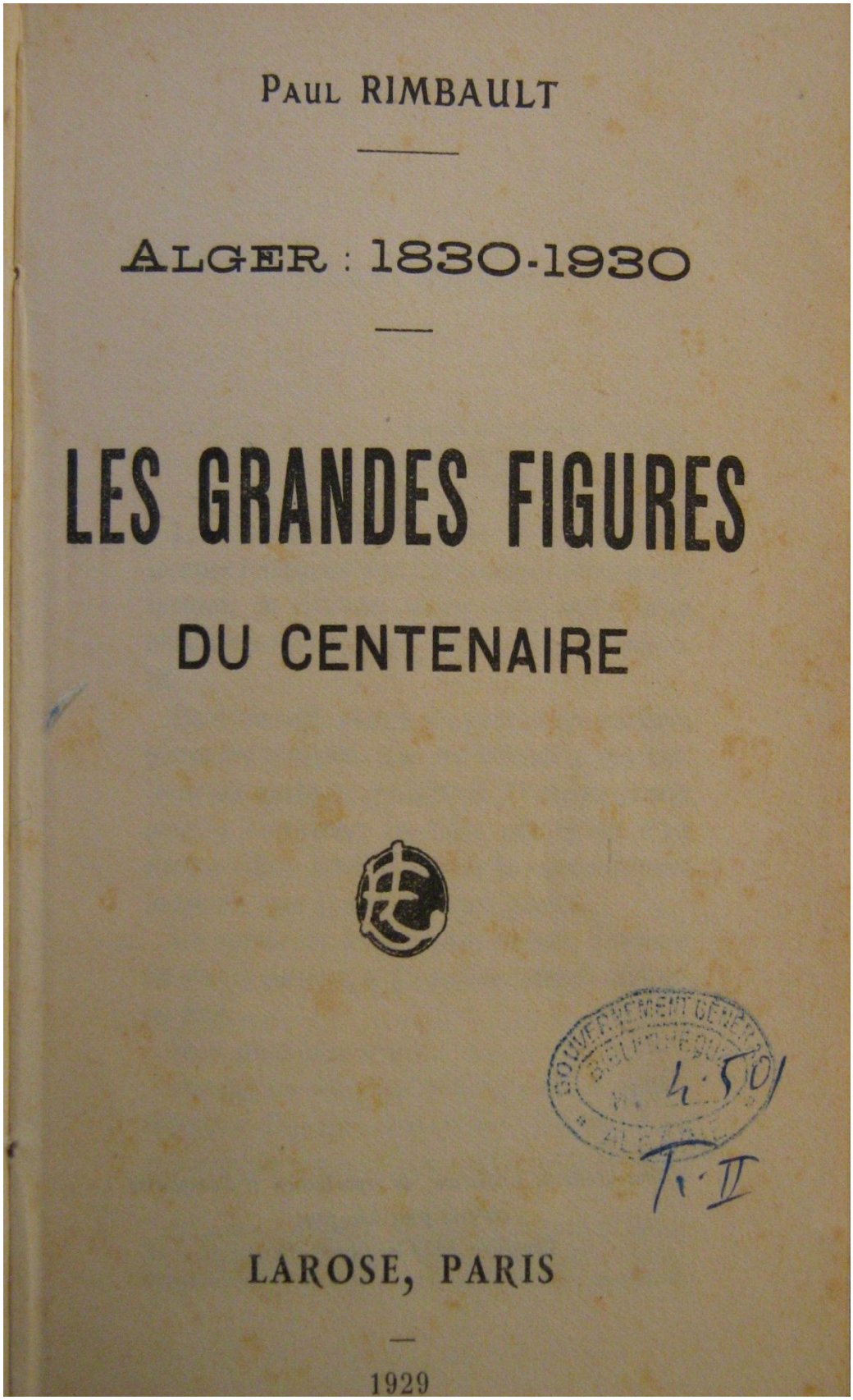
PAUL RIMBAULT

ALGER : 1830-1930

LES GRANDES FIGURES

DU CENTENAIRE

LAROSE, PARIS

1929

Le Cardinal Lavigerie